رواية" نجمة" لكاتب ياسين والثورة على تقاليد الكتابة الروائية

الأستاذ: نـاجـــي صالحـــي
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة قاصدي مرباح- ورقلـــة

إن الكتابة الروائية هي عملية انفتاح على كل تشكلات الفعل الإبداعي في مختلف صوره، فهي دون شك تعمل على التجريب المستمر وتجاوز كل الحدود والتجارب السالفة، لأن رواية التجريب« لا تخضع في بنيتها لنظام مسبق يحكمها، ولا إلى ذلك المنطق الخارجي الذي تحتكم إليه الأنماط التقليدية في الكتابة الروائية، إنما تستمد نظامها من داخلها وكذلك منطقها الخاص بها من خلال تكسير الميثاق السردي المتداول، والتخلص من نمطية بنياته»[1]، فرواية التجريب تستمد خصائص حداثتها من عملية الثورة على السائد السردي.

وهاهو كاتب ياسين الثوري المتمرد يكتب بلغة الاستعمار مرغماً لأنه فقد لغته الأم عندما تعلم في المدارس الفرنسية، كاتب ياسين الذي جعل من اللغة الفرنسية غنيمة حرب كالمحارب الأسطوري الذي يفتك سلاح عدوه ويقضي عليه به، ليبقى محافظاً على هويته الجزائرية، منادياً بالاستقلال والحرية في كل أعماله رافعاً راية الكتابة في التيار الطليعي والإنساني راصداً في إبداعاته أحلام البسطاء والمهمشين.

وقد خلف مؤلفات عديدة ومتنوعة منها:

- مناجاة (شعر 1946).
- أشعار الجزائر المضطهدة (شعر 1948).
- نجمة (رواية 1956).
- ألف عذراء (شعر 1958).
- المضلع النجمي (رواية 1966).
- دائرة القصاص (مجموعة مسرحيات 1959).

- الرجل ذو النعل المطاطي (مسرحية 1970).

وألف كاتب ياسين رواية نجمة" 1956" التي قال عنها:" هل ماتت روحها الجزائرية عندما كتبتها بالفرنسية". واعتبرها النقاد أجمل نص بالفرنسية لكاتب من أصل غير أوروبي حيث عبر ياسين بصدق عن فترة مؤلمة في حياة الجزائريين.

وهنا وبالعودة إلى الرواية الجزائرية فإننا نجد ذلك العدد الكبير من الروائيين الذين انخرطوا في رواية التجريب، أو اعتمدوا التجريب في الرواية الحداثية، ومن السباقين إلى هذه التجربة اخترنا الروائي كاتب ياسين الذي اشتهر برواية" نجمة"، هذه الرواية التي سبق لنا تناولها بالدراسة في مناسبات أخرى، وها نحن نتناولها من زاويتها الحداثية.

وهاهو الكاتب يبدأ روايته بالهروب من السجن وبداية الرحلة مع المعاناة، هروب لخضر من السجن وظهوره على السطح، لخضر ذلك المتمرد الرافض لكل أشكال القهر والاستعباد، طافح الكيل من معاملة رئيس عمله الذي لا يختلف عن باقي أرباب العمل المستعبِدين، فلا مكان لحياة أفضل من تلك التي تركها الهارب في السجن، لأن المهرب إلى الشارع أو إلى تلك المقاهي والحانات القديمة مأساة أخرى تنتظره، فلا بيت ولا عمل ولا أهل ولا حتى هوية تثبت وجوده كإنسان، ولا سبيل له سوى التسكع والتمرد على الكل.

هذه الأفعال والسلوكيات يدعوا إليها النص مؤكداً على ضرورة النهوض ضد الاستغلال ومقاومته وتغيير النسق الفكري السائد الذي غيّب هذه العناصر وجعل من الشعب عبيداً يرضخون لسلطة المستعمِر الذي استولى على الأرض، وبعث الرعب والخوف في نفوس الناس ليستسلموا لهذه القوة الجبارة التي لا تقهر، هذه الأدوار التي أظهرها الكاتب في نصه تبرر موقفه من الحاضر السائد بكل مستوياته وأشكاله.

لذا تعد رواية نجمة على مستوى الكتابة الحداثية نصاً تجريبيا مميزاً، حيث يقوم هذا العمل على مقاطع سردية متباينة قام كاتب ياسين فيها بالخروج عن المألوف وتشويه تقاليد الكتابة الروائية وخرق القواعد المتعارف عليها في عالم هذا الفن السردي، لتبدو هذه الرواية عبارة عن ومضات عابرة وتأملات غير منطقية، وصور شعرية كثيفة مليئة بالاستعارات والهذيانات أو الأحلام والكوابيس المتكررة، وكثير من الحوارات المبهمة بجُمل ناقصة وكلمات ليس لها معنى، و« ليست "نجمة" عملاً روائياً وكفى، ليست قصة ننتظر نهايتها، وليست أبطالا بالمفهوم المتواتر. إنها سديم حقيقي يقود إلى ما يشبه الهوة

الممتدة من المطلع إلى الخاتمة».[2] أحدثت هذه الطفرة جدلية ولدت الانفعال والتوتر في ذهن القارئ والدارس لهذا العمل، والذي تزعزعت معارفه ومعاييره الثابتة في هذا المجال، وذلك من خلال صورة الزمن وعلامة الشخصية ونظام السرد في هذا النص، حيث عمد الكاتب إلى تفكيك الزمن السردي إلى إشارات جزئية تجعل القارئ يضيع في هذا التداخل والخلط.

كما أن شخصيات الرواية جاءت متوترة، مبعثرة، يصعب فهمها ورسم سماتها التي تكون صورتها، وهذا ما يستدعي إعادة تركيب المعطيات من جديد، لتكتمل الصورة باكتمال النص،« وتنكسر القاعدة مع رواية نجمة بسبب الاضطراب والفوضى القصوى التي اعتمدها كاتب ياسين في خطابه، بتكرار المشاهد السردية نفسها، وتكرار الأماكن والحقب التاريخية، وتداخل الأصوات الساردة، والشخصيات، ويظهر النص في صورة مجزأة، مشتتة وغير منسقة ».[3]

مجسداً بذلك التفكك صورة المجتمع المفكك والاضطرابات التي تسم حياة الفرد الجزائري الذي يعيش على هامش الحياة، يعيش دون وطن، دون مصير معلوم، وهاهو " سي احمد" منشغل البال في مصير هذا البلد في قوله:« يجب عليك التفكير في مصير هذا البلد الذي جئنا منه، الذي ليس مقاطعة فرنسية، الذي ليس له لا باي ولا سلطان (...) لأننا لسنا أمة، ليس بعد».[4]

إضافة إلى هذا وعلى غرار كتاب" تيار الوعي"* قام الكاتب بهدم النظام الزمني، والتلاعب بالأنساق الزمنية، وإلغاء الحدود الفاصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل، لتتداخل الأزمنة فيما بينها، جاعلة من الماضي حاضراً والحاضر مستقبلاً في نسيج زمني مركب ومعقد يناقض المعايير التقليدية التي كانت سائدة، مغيباً بذلك الزمن الكرنولوجي والشعور بالنظام والترتيب.

كما أن البنية السردية في" نجمة" شكلت خروجاً عن المألوف وتفكيكا للمرجعية المعهودة، حيث يفاجأ القارئ بتحول السرد من ضمير السارد الغائب والذي يجسده المؤلف، ليتحول فجأة بصوت أحد أبطال الرواية، ثم يظهر السارد من جديد ويغيب مرة أخرى، « وليس على القارئ الفرضي محاولة إيجاد العلاقات السببية بين الموضوعات وبين المواد

السردية قاطبة، لأن الكاتب نفسه أرادها خلط ملط، انقطاعاً على انقطاع إضمارا على آخر، سوابق على سوابق، لواحق على لواحق»[5].

كل هذا التمرد على قواعد الكتابة المعروفة آنذاك، والبادي في هذه الرواية تبرره رغبة كاتب ياسين في الثورة على كل ما يشكل سلطة سابقة تفرض عليه قواعد معينة وتملي عليه شروطاً محددة ترغمه على الانصياع لها، وهذا ما تطرق له" جاك دريدا"** حين استقرأ الفكر الفلسفي الغربي، بداية من فكر أفلاطون إلى عصرنا الحاضر، حيث لاحظ« أن الفكر الغربي فكر متحيز، عنصري، ينصّب نفسه بؤرة مركزية للعالم، ويسعى إلى تفسير العالم بإخضاعه إلى رؤية معينة ودلالة موحدة منبعثة من أناه»[6]، وكاتب ياسين المبعد، والثائر الرافض، واحد من الذين انتقدوا وثاروا على تلك الأفكار والأشكال السلطوية بحثاً عن الخلاص والتحرر.

خلاصة القول ولما كان الأدب من أهم مظاهر الوعي والتنمية الثقافية، ووسيلة فعّالة في البحث عن الهوية وتحقيق التحرر والتقدم، صار لزامًا عليه مواجهة كل أصناف الإقصاء والتهميش بالثورة على المركز السلطوي القامع لما دونه، أو محاولة التسلق إليه في صراع أزلي تتبادل الأدوار فيه كل مرة.

فإن" نجمة" رواية متمردة بالنسبة لتقنيات الكتابة الروائية في فترة الاستعمار الفرنسي، وهذا لأنها لم تلق القبول في بادئ الأمر في الأوساط الأدبية الكلاسيكية في تلك الفترة، أو على الأقل أثارت حفيظة العديد من النقاد لما أحدثته من دهشة لدى القراء وما شكلته من خلخلة في القواعد الروائية المتعارف عليها، وخاصة أنها رواية جزائرية ما كان عليها أن تصل إلى هذا الحد من الثورة والتمرد في نظر الكثيرين حالها حال كل آداب الأقليات المهمشة، التي تسعى دوماً لأن تشكل صوتاً أدبياً جديداً خاصاً بها تواجه به سلطة الكتابة الاستعمارية التقليدية، أو تحاول تقديم البديل عنها، من خلال ما تصنعه من تميز وتفرد.

الهوامش:

1- مصطفى الكيلاني: اشكاليات الرواية التونسية، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، ص 199.

2- كاتب ياسين: رواية نجمة، تر: السعيد بوطاجين، منشورات الاختلاف، الجزائر، الجزائر، ط1، 2007، ص 6(من مقدمة المترجم).

3- كريمة بالخامسة: إشكالية التلقي في أعمال كاتب ياسين، مخطوط أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، قسم الأدب العربي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، دت، ص 175.

4- الرواية: ص 167.

*- تيار أدبي أول ظهور له كان عند عالم النفس الانجليزي وليام جيمس في كتابه" أسس علم النفس"، ثم ظهر في مجال الأدب عند الناقدة" ماي سنيكلر"، يهتم هذا التيار بالجوانب الشخصية الداخلية كالعواطف والأحاسيس، والاهتمام بالنفس الإنسانية والمشاعر والتداعيات والمونولوج الداخلي.

5- رواية نجمة، مقدمة السعيد بوطاجين ، ص 6.

**□ ولد الفيلسوف جاك دريدا بالجزائر(الأبيار) عام 1930، ومات في باريس عام 2004، وهو من زعماء التفكيكية، من مؤلفاته، الكتابة والاختلاف 1967، التشتت 1969، مواقف 1972-1982، أطياف ماركس 1995.

6- يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، الجزائر، ط1، 2008، ص357.